

التحرير والتنوير

ولك أن تجعل قوله (فاعلموا) تنزيلا لعلمهم منزلة العدم لعدم جريهم على ما يقتضيه من المبادرة إلى الدخول في الدين أو لمخالفة أحكام الدين أو من الامتناع بالصلح الذي عقده الرسول .

وإنما قال تعالى (من بعد ما جاء تكم البيئات) إذارا لهم وفيه إشارة إلى أنهم يجب عليهم تفويض العلم إلى الله الذي أوحى إلى رسوله بإبرام الصلح مع المشركين لأنه ما أوحاه الله إلا لمصلحة وليس ذلك بوهن للمسلمين لأن الله عزيز لا يهن لأحد ولأنه حكيم يضع الأمور في مواضعها ويختار للمسلمين ما فيه نصر دينه وقد رأيت البيئات الدالة على عناية الله برسوله وأنه لا يخزيه ولا يضيع أمره ومن تلك البيئات ما شاهدوه من النصر يوم بدر . وإن كان المراد الدخول في الإسلام أو الدوام عليه فالمعنى (فإن زلتم) : الاتصاف بما يناه في الأمر بالدخول في السلم والمراد بالبيئات المعجزات الدالة على صدق الرسول نقل الفخر عن تفسير القاضي عبد الجبار دلت الآية على أن المؤاخذة بالذنب لا تحصل إلا بعد البيان وأن المؤاخذة تكون بعد حصول البيئات لا بعد حصول اليقين من المكلف لأنه غير معذور في عدم حصول اليقين إن كانت الأدلة كافية .

وفي الكشف روى أن قارئاً قرأ هذه الآية فإن الله غفور رحيم فسمعه أعرابي فأنكره وقال لا يقول الحكيم كذا لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه اه وفي القرطبي عن تفسير النقاش نسبة مثل هذه القصة إلى كعب الأبحار وذكر الطيبي عن الأصمعي قال كنت أقرأ : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم وبجنيبي أعرابي فقال كلام من هذا ؟ قلت كلام الله . قال : ليس هذا كلام الله فانتبهت فقرأت والله عزيم حكيم فقال أصبت هذا كلام الله ؟ قلت أتقرأ القرآن ؟ قال لا قلت من أين علمت ؟ قال يا هذا عز فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع .

(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور [210]) إن كان الإضمار جارياً على مقتضى الظاهر فضمير ينظرون راجع إلى معاد المذكور قبله وهو إما (من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) وإما إلى (من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) أو إلى كليهما لأن الفريقين ينتظرون يوم الجزاء فأخذ الفريقين ينتظره شكاً في الوعيد بالعذاب والفريق الآخر ينتظره انتظار الراجي للثواب .

ونظيره قوله (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنني معكم من المنتظرون) فانتظارهم أيام الذين خلوا انتظار توقع سوء وانتظار النبي معهم انتظار

وإن كان الإضرار جاريا على خلاف مقتضى الظاهر فهو راجع إلى المخاطبين بقوله ادخلوا في السلم وما بعده أو إلى الذين زلوا المستفاد من قوله (فإن زلتم) وهو حينئذ التفات من الخطاب إلى الغيبة إما لمجرد تجديد نشاط السامع إن كان راجعا إلى المخاطبين بقوله (يا أيها الذين آمنوا) وإما لزيادة نكتة إبعاد المخاطبين بقوله (فإن زلتم) عن عز الحضور قال القرطبي هل ينظرون يعني التاركين الدخول في السلم وقال الفخر الضمير لليهود بناء على أنهم المراد من قوله (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم) أي يا أيها الذين آمنوا باء وبعض رسله وكتبه على أحد الوجوه المتقدمة وعلى أن السلم أريد به الإسلام ونكتة الالتفات على هذا القول هي هي .

فإن كان الضمير لمن يعجبك أو له ولمن يشري نفسه فالجملة استئناف بياني لأن هاتين الحالتين العجيبتين في الخير والشر تثير أن سؤال من يسأل عن جزاء كلا الفريقين فيكون قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) جوابا لذلك وإن كان الضمير راجعا إلى الذين آمنوا فجملة (هل ينظرون) استئناف للتحريض على الدخول في الإسلام خشية يوم الجزاء أو طمعا في ثوابه وإن كان الضمير للذين زلوا من قوله (فإن زلتم) فالجملة بدل اشتمال من مضمون جملة (فإن الله عزيز حكيم) لأن معناه فإن زلتم فإن لا يفلتكم لأنه عزيز حكيم وعدم الإفلات يشتمل على إتيان أمر الله والملائكة وإن كان الضمير عائدا إلى اليهود فهو توبيخ لهم على مكابرتهم عن الاعتراف بحقية الإسلام .